تراثنا

نشرة فصلية تصدرها

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

ISSN 1016 - 4030

العدد الثاني [١٣٤]

السنة الرابعة والثلاثون / ربيع الآخرة - جمادى الآخرة ١٤٣٩ هـ

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

* الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والباحثين والمعنيّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام .
* الآراء المنشورة لا تعبِّر عن رأي النشرة بالضرورة .
* ترتيب المواضيع يخضع لأُمور فنّية وليس لأيّ أمر آخر .
* النشرة غير ملزمة بنشر كلّ ما يصل إليها أو بإعادته إلىٰ أصحابه .

المراسلات تعنون باسم : هيئة التحرير .
دورشهر ـ خيابان شهيد فاطمي ـ كوچه ٩ ـ پلاك ١ و ٣
هاتف : ٥ ـ ٣٧٧٣٠٠٠١ ـ فاكس : ٣٧٧٣٠٠٢٠ .
البريد الألكتروني : *e-mail : turathona@rafed.net*
ص . ب . ٩٩٦ / ٣٧١٥٦٥٣٧٧١ ـ قم ـ الجمهورية الإسلامية في إيران .
تراثنا .
العدد : الثالث [١٣٥] السنة الرابعة والثلاثون / رجب ـ رمضان ١٤٣٩ هـ .
الإعداد والنشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث .
الكمّيّة : ٢٠٠٠ نسخة .
الفلم والألواح الحسّاسة : تيزهوش ـ قم .
المطبعة : الوفاء ـ قم .
الاشتراك السنوي : ٢٠٠٠ تومان في إيران ، و ٢٥ دولاراً أمريكياً في بقيّة أنحاء العالم .

تأويلات السيّد علي الحائري
بين جماليات التعبير القرآني والشطط التاريخي
في ضوء تفسيره (مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر)

د. حامد ناصر الظالمي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياته :

ولد السيّد علي الحائري في مدينة كربلاء في حدود سنة (١٢٧٠ هـ ـ ١٨٥٤م).

وهو السيّد علي بن حسين بن يونس ابن السيّد إسماعيل، إذ ينتهي نسبه إلىٰ السيّد إبراهيم المجاب ابن السيّد محمّد العابد ابن الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، وقد سمّي بالحائري إمّا لولادته في كربلاء أو لانحداره من البيوتات العلوية الشريفة التي سكنت حائر الإمام الحسين عليه السلام. أو لإقامته في الحائر.

نشأ السيّد علي الحائري في كربلاء ودرس في كتاتيبها تلاوة القرآن وأحكامه والنحو والصرف واللغة والأخلاق، ثم هاجر إلىٰ النجف الأشرف

لاكمال دراسته هناك، وقرأ علىٰ علمائها أيضاً، وبقي في كربلاء والنجف مدّة طويلة.

ومن أساتذته والده السيّد حسين الملقّب بالتقوي لشدّة تقواه وورعه، وتتلمذ كذلك علىٰ السيّد محمّد حسن الشيرازي، بل وأجازه بالاجتهاد عندما كان يُقيم في سامراء[١].

ولد للسيّد علي الحائري ابنان هما السيّد مهدي الملقّب بشمس الفقهاء والسيّد هادي من زوجته الأولىٰ التي تزوّجها في كربلاء، وبنتاً واحدة من زوجته الثانية التي تزوّجها في طهران[٢].

هاجر السيّد علي الحائري إلىٰ إيران سنة (١٨٩٢م) وعاش هناك بقيّة حياته إلىٰ أن توفّي في العشرين من شوّال سنة (١٣٥٣ هـ) في مدينة طهران، ودفن قرب مسجد الشاه عبد العظيم عن عمر يناهز (٨٣ سنة)[٣].

وفي طهران عكف علىٰ تفسير القرآن فكتبَ **مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر**، إذ جاء في نهاية هذا التفسير: «وقد تمّ بعون الله كتاب **مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر** في تفسير الكتاب العزيز ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ في الشهر الذي أُنزل في مثله القرآن من السنة السابعة بعد

---

(١) يُنظر (نقباء البشر في القرن الرابع عشر) ضمن كتاب طبقات أعلام الشيعة (القسم الرابع من الجزء الأوّل): (١٤٢٢).

(٢) يُنظر عشائر كربلاء وأسرها ١٢٤/١.

(٣) يُنظر نقباء البشر في القرن الرابع عشر: (١٤٢٢).

الثلاثين بعد الثلاثمئة بعد الألف»[١].

أي أنّه انتهىٰ من تفسيره وعمره (٦٧) سنة إذا ما عرفنا أنّ ولادته كانت (١٢٧٠ هـ) وإنتهاء تأليفه للكتاب كان في رمضان سنة (١٣٣٧ هـ).

لقّب السيّد علي الحائري بألقابٍ عديدة منها:

١ ـ الحائري: وكان هذا اللقب لولادته في كربلاء قرب الحائر الحسيني الشريف في دار جده السيّد يونس.

٢ ـ الطهراني: لأنّه سكن طهران منذ أن هاجر إليها سنة (١٣٩٢ هـ).

٣ ـ المفسّر: لأنّه عمل علىٰ تفسير القرآن شطراً طويلاً من حياته.

٤ ـ اللاريجاني: وقد أشار إلىٰ هذا اللقب الشيخ آغا بُزرك الطهراني[٢].

ومن تلامذته الذين يرد ذكرهم في مقدّمة التفسير الحاج عبدالحسين المعروف بمحسنيان الذي بذل الجهد الكبير في نشر هذا التفسير وتنظيم مخطوطاته، وكانت الطبعة الأولىٰ له هي طبعة المطبعة الحيدرية ونشرته دار الكتب الإسلامية في طهران سنة (١٣٧٩ هـ) وكانت علىٰ نفقة الحاج محمود الكاشاني، فقد كانت هذه الطبعة بعد وفاته بستّ وعشرين سنة وبعد الانتهاء من تأليف التفسير بحدود اثنتين وأربعين سنة.

أمّا الطبعة الثانية فهي طبعة مؤسّسة التاريخ العربي بيروت سنة (٢٠١٢م)، والطبعة الثالثة هي طبعة مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي بتحقيق:

---

(١) تفسير مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر ٣٣٠/٢.

(٢) يُنظر نقباء البشر: (١٤٢٢) ومعجم المؤلّفين ٤٣٥/٢.

السيّد محمّد وحيد الطبسي الحائري ومراجعة وتدقيق: محمّد تقي الهاشمي، في قم سنة (٢٠١٢م).

أمّا تسمية تفسيره بـ: **مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر** فقد تكون لكثرة ما عرضه من آراء وأقوال وتأويلات المفسّرين ومناقشتها وموازنتها وترجيح بعض علىٰ البعض، لذلك فهذه الآراء التي عرضها قد التقطها فهي كالدُرر والثمر.

امتاز هذا التفسير بالرأي المعتدل والطرح المتّزن، والنقل الدقيق، والعرض لآراء المفسّرين، والموضوعية في الطرح والترجيح، وكان مقدِّراً لآراء المفسّرين ومرجّحاً لها، بعد أن يقوم بطرح ما اجتمع لديه من احتمالات، وقد تبدأ الاحتمالات باثنين وتنتهي بتسعة احتمالات، وهذه الاحتمالات جمعها والتقطها من بطون التفاسير فكانت ثماراً طيّبة من شجرة المذاهب الإسلامية جميعاً.

كان في بعض الاحتمالات مُرجّحاً لرأي أو مؤكّداً عليه، وفي الغالب كان يترك عرض الوجوه والتأويلات دون ترجيح، فالقارئ هو من يختار المناسب من الوجوه وهذا الأمر جعل من تفسيره منفتحاً علىٰ الآخر.

اهتمّ السيّد علي الحائري بموضوعات دلالية مهمّة منها النظم القرآني، وإيجاد المناسبة بين سور القرآن الكريم، والمناسبة بين مطالع السور وخواتيمها، وبين موضوع السورة وخاتمتها، وبين نهاية سورة ومطلع الأخرىٰ التي بعدها، وهذا الأمر ـ أي علم المناسبة ـ يحتاج إلىٰ حصافةٍ

عقلية، ومعرفة بالمقاصد الكلّية في القرآن، والأنساق العامّة للنصّ القرآني- وهي موضوعنا في حديثٍ قادم -.

أمّا عملنا الآن فسيكون بتتبّع أطروحاته حسب أسبقيّتها في النصّ القرآني، وسنركّز على الموضوعات التالية:

أوّلاً: التعليل: أي محاولة إيجاد العلّة في اختيار الألفاظ، وطرق التعبير بها، وكيفية توزيعها في نظام الجملة، وأسباب ذلك الاختيار والتوزيع.

المثال الأوّل: حديثه عن السمع والبصر إذ قال «اعلم أنّه اختلف في أفضلية نعمة البصر والسمع فقال قائل: بأفضلية السمع لوجوهٍ.

منها: أنّ الله قدّم في الذكر في أغلب القرآن السمع على البصر، والتقديم في الذكر دليل على الشرف.

ومنها: أنّ العمى وقع في حقّ الأنبياء وأمّا الصمم فغير جائز لأنّه مُخلٌّ بأداء الرسالة.

ومنها: أنّ السمع يدرك من جميع الجوانب دون البصر.

ومنها: أنّ الإنسان يستفيد من المعارف من المعلّم وذلك لا يمكن إلّا بالسمع.

ومنها: أنّ امتياز الإنسان عن سائر الحيوانات بالنطق والكلام، وإنّما ينتفع به السامعة لا الباصرة، ومتعلّق النطق الذي به شرف الإنسان ومتعلّق البصر الألوان والأشكال، وذلك أمرٌ مشترك بين الإنسان وسائر الحيوان.

ومنهم مَن قال بأنّ البصر أفضل من السمع:

قالوا: المشهور أنّه ليس الخبر كالمُعاينة وذلك يدلّ على أنّ أكمل وجوه الإدراك البصر.

الثاني: إنّ عجائب حكمة الله في العين أكثر من عجائب حكمته في تخليق الأذن، فركّب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وجعل لها عضلات كثيرة على صور مختلفة، والأذن ليس كذلك. وكثرة العناية في التخليق في الشيء يدلّ على كونه أفضل من غيره.

الثالث: أنّ القوة الباصرة هي النور، والآلة السامعة هي الهواء، والنور أشرف من الهواء.

الرابع: أنّ البصر يرىٰ ما فوق سبع سماوات، والسمع لا يدرك ما بعُد علىٰ فرسخين، فكان البصر أقوىٰ.

الخامس: أنّ بعض الناس يسمع كلام الله وكلام الملائكة في الدنيا ولا يراه أحد، وأنّ موسىٰ سمع كلام من غير سؤال، ولمّا سُئل قال: ﴿**لَنْ تَرَانِي**﴾ فذلك يدلّ علىٰ أنّ حال الرؤية أعظم وأعلىٰ من السماع، علىٰ أنّ ذهاب العين ليس كذهاب السمع وهي الكريمتان: وأنطق بلحم، ورتّب غذائه في النبات بحبوبه وثماره، وفي الحيوان بحياته وآثار نفعه، وفي الأراضي بأشجاره وأنهاره، وفي الأفلاك بكواكبه وأنواره»[1].

والأمر في القرآن واضح في تقديم السمع علىٰ البصر إذ يقول تعالىٰ:

---

(١) مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر ٣٥/١ ـ ٣٦.

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[١] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٣] وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾[٤] وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيءٍ﴾[٥] وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٦] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾[٧] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[٨] وقوله تعالىٰ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٩] وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١٠] وقوله تعالىٰ: ﴿اللهُ

---

(١) سورة البقرة: ٧.
(٢) سورة البقرة: ٢٠.
(٣) سورة البقرة: ١٠٨.
(٤) سورة فُصِّلت: ٢٠.
(٥) سورة الأحقاف: ٢٦.
(٦) سورة السجدة: ٩.
(٧) سورة المُلك: ٢٣.
(٨) سورة الأنعام: ٤٦.
(٩) سورة الإسراء: ١.
(١٠) سورة الحجّ: ٦١.

يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١] وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣] وقوله تعالىٰ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٥] وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٦] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٧] وقوله تعالىٰ: ﴿فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٨] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٩] وقوله تعالىٰ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[١٠] وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾[١١] وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الحجّ: ٧٥.
(٢) سورة لقمان: ٢٨.
(٣) سورة غافر: ٢٠.
(٤) سورة غافر: ٥٦.
(٥) سورة الشورىٰ: ١١.
(٦) سورة المجادلة: ١.
(٧) سورة النساء: ٨٥.
(٨) سورة النساء: ١٣٤.
(٩) سورة الإنسان: ٢.
(١٠) سورة مريم: ٣٨.
(١١) سورة هود: ٢٠.

﴿تَشْكُرُونَ﴾[١] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـؤُولاً﴾[٢] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾[٣] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾[٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾[٥] وقوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[٦] وقوله تعالىٰ: ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[٧]. فهذه الآيات والبالغة سبع وعشرون آية تقدّم فيها ذكر السمع علىٰ البصر، وغالباً ما يأتي السمع مفرداً والبصر جمعاً، فتقدّم السمع هنا لأنّه هو المتقدّم عند ولادته الإنسان؛ فأولىٰ المُدركات هي حاسة السمع عند الطفل وعندما تنتهي حياة الإنسان فآخر حاسّة تبقىٰ معه هي السمع وهي الحاسة الوحيدة التي تبقىٰ فاعلة حتى لو نام الإنسان وهي الحاسّة التي ليس عليها ما يمنعها من غطاء أو غيره بخلاف البصر فالبصر يتحكّم الإنسان به إرادياً. ولذلك فهذه الحاسة تبقىٰ يقظة عند الإنسان وأصحاب الكهف لم يناموا لولا أن ضُرب علىٰ آذانهم كما في قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة النحل: ٧٨.
(٢) سورة الإسراء: ٣٦.
(٣) سورة المؤمنون: ٧٨.
(٤) سورة المُلك: ٢٣.
(٥) سورة فُصِّلت: ٢٢.
(٦) سورة يونس: ٣١.
(٧) سورة النحل: ١٠٨.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾[١] .

المثال الثاني : هو تعليله لقوله تعالىٰ : ﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ ، فلماذا أَسنَدَ سبحانهُ وتعالىٰ الغضبَ لغيره والنعمة له بقوله تعالىٰ : ﴿الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ ، قال السيّد علي الحائري : «وإنّ الغضب صادر عن الغير بسبب أنّ الغير صار سبب الغضب ، فالمناسب أن يقول غير الذين غضبت عليهم فصار الكلام في قوة التصريح في جانب الرحمة والتعريض في جانب العقاب»[٢] أي أنّه تعالىٰ خصّ النعمة به والغضب جعل مصدره مجهولاً وعامّاً ، فهو غضب من الله الناس والمخلوقات فهو غير محدّد .

والمثال الثالث : تعليله لتكرار قوله تعالىٰ : ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ﴾ فقد وردت في قوله تعالىٰ : ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٣] وقوله تعالىٰ : ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤] ، فقال السيّد علي الحائري هو «استئناف مبنيّ علىٰ سؤالٍ يَنسَحبُ عليه الكلام كأنّه قيل : فما وقع بعد قبول توبته؟ فقيل : ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ من الجنة (جميعاً) ، وفي تكرير الهبوط؛ فقيل : الهبوط الأوّل من الجنّة إلىٰ السماء ،

---

(١) سورة الكهف : ١١ .

(٢) مقتنيات الدُرر ٥٠/١.

(٣) سورة البقرة : ٣٦ .

(٤) سورة البقرة : ٣٧ .

وهذا الهبوط من السماء إلىٰ الأرض، وقيل: التكرير للتأكيد، والخطاب لآدم وحوّاء وذريّتها باعتبار ما يكون، وقيل: الخطاب لآدم وحوّاء وإبليس والحيّة والطاووس، والمُراد اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم علىٰ الهبوط في زمان واحد، وكرّر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحقّقه لا محالة، ودفعاً لما وقع في أُمنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن الهبوط، ولأنّ الأمر الثاني بالهبوط مُشعر بالتكليف والابتلاء بالعبادة والثواب والعقاب، ولذلك اقترن الهبوط الثاني بإيتاء الهدىٰ المؤدّي إلىٰ النجاة وما فيه من وعيد العقاب، فليس بمقصود من التكليف قصداً أوّليّاً بل إنّما هو دائر علىٰ سوء اختيار المكلَّفين»[1].

والمثال الرابع: هو تعليله لقوله تعالىٰ: ﴿**وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**﴾[2] إذ قال السيّد علي الحائري «وعيسىٰ بالسريانية: اليسوع ومعناه المبارك، وابن بإثبات الألف في الكتابة وإن كان واقعاً بين العلمين لندرة الإضافة إلىٰ الأم. ومريم بالسريانية: بمعنىٰ العابدة والخادمة للمعبد، وقد جعلتها أُمّها محرَّرة لخدمة المسجد، ولكمال عبادتها لربّها سمّاها مريم، وصرّح باسمها في القرآن مع الأنبياء سبع مرّات، وخاطبها كما خاطب الأنبياء كقوله: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾[3] فشاركها

---

(١) مقتنيات الدُرر ٢١٢/١.

(٢) سورة البقرة: ٧٨.

(٣) سورة آل عمران: ٤٣.

مع الرجال، ولو كانت النساء بمثل هذه لفضّلت النساء علىٰ الرجال﴾[١].

أقول: لقد وردت لفظة مريم في القرآن الكريم في أربعٍ وثلاثين مرّة وليس بسبع مراتٍ وهي قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٢].

٢ ـ ﴿وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[٣].

٣ ـ ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[٤].

٤ ـ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾[٥].

٥ ـ ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾[٦].

٦ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٧].

٧ ـ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾[٨].

٨ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٩].

---

(١) مقتنيات الدُرر ٣٢٣/١.

(٢) سورة البقرة: ٨٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٤) سورة آل عمران: ٤٥.

(٥) سورة النساء: ١٥٧.

(٦) سورة النساء: ١٧١.

(٧) سورة المائدة: ١٧.

(٨) سورة المائدة: ٧.

(٩) سورة المائدة: ٤٦.

٩ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[١] .

١٠ ـ ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[٢] .

١١ ـ ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾[٣] .

١٢ ـ ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾[٤] .

١٣ ـ ﴿يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٥] .

١٤ ـ ﴿قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٦] .

١٥ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾[٧] .

١٦ ـ ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

---

(١) سورة المائدة : ٧٢ .

(٢) سورة المائدة : ٧٥ .

(٣) سورة المائدة : ٧٨ .

(٤) سورة المائدة : ١١٠ .

(٥) سورة المائدة : ١١٢ .

(٦) سورة المائدة : ١١٤ .

(٧) سورة المائدة : ١١٦ .

مَرْيَمَ﴾[١].

١٧ ـ ﴿ذَلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[٢].

١٨ ـ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾[٣].

١٩ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾[٤].

٢٠ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم﴾[٥].

٢١ ـ ﴿كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾[٦].

أما الآيات التي ذُكرت فيها مريم دون إضافة عيسىٰ أو المسيح إليها فهي:

١ ـ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[٧].

٢ ـ ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾[٨].

---

(١) سورة التوبة: ٣١.

(٢) سورة مريم: ٣٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٧.

(٤) سورة الحديد: ٢٧.

(٥) سورة الصف: ٦.

(٦) سورة الصف: ١٤.

(٧) سورة آل عمران: ٣٦.

(٨) سورة آل عمران: ٣٧.

٣ ـ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾[١] .

٤ ـ ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[٢] .

٥ ـ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[٣] .

٦ ـ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[٤] .

٧ ـ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾[٥] .

٨ ـ ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٦] .

٩ ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾[٧] .

١٠ ـ ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾[٨] .

١١ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾[٩] .

١٢ ـ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[١٠] .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٣ .

(٣) سورة آل عمران : ٤٤ .

(٤) سورة آل عمران : ٤٥ .

(٥) سورة النساء : ١٥٦ .

(٦) سورة النساء : ١٧١ .

(٧) سورة مريم : ١٦ .

(٨) سورة مريم : ٢٧ .

(٩) سورة المؤمنون : ٥٠ .

(١٠) سورة الزخرف : ٥٧ .

١٣ ـ ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[١] .

ولفظة ابن التي جاءت بين اسمين دون حذف الألف هو خطّ قرآني قد تكون له دلالة محدّدة ، وقد يتمّ الاجتهاد بدلالته مثال ذلك قوله تعالىٰ : **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾**[٢] فقد وردت لفظة إبراهيم بـ (ابرهيم) وهي الوحيدة في القرآن الكريم التي ترد بهذا الخط دون الألف ومنه كذلك قوله تعالىٰ : **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾**[٣] فقد وردت بالألف الممدودة وليس المقصورة فقد يكون لذلك دلالة .

والمثال الخامس : هو تعليله لتقديم النساء في قوله تعالىٰ : **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ﴾**[٤] ، إذ قال السيّد علي الحائري «وقدّم ذكر النساء أي : حال كونها من طائفة النساء لعراقتهنّ في معنىٰ الشهوات ، فإنهنّ حبائل الفتنة»[٥] .

ثانياً : الفروق الدلالية

اهتمّ السيّد علي الحائري بهذا الموضوع وعمل علىٰ التمييز بين المعاني

---

(١) سورة التحريم : ١٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٣٠ .

(٣) سورة الإسراء : ١ .

(٤) سورة آل عمران : ١٤ .

(٥) مقتنيات الدُرر ٢٢١/٢ .

التي يُعتقد أنّها متشابهة:

ـ ومن ذلك تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[1] إذ قال «والفرق بين السوء والفحشاء: قيل إنّ السوء خيانة اليد والفحشاء هو الزنىٰ، أو أنّ السوء مقدّمات الفاحشة كالقُبلة والنظر بشهوة، والفحشاء هو الزنىٰ»[2].

وفي كتب الفروق اللغوية: إنّ الفحشاء من الفُحش، والفاحش أي الشديد القُبح وكلّ شيء جاوز حدّ الاعتدال مجاوزةً شديدة فهو فاحش[3]. لذا فالانتقال كان هنا من السوء إلىٰ الفحشاء أي من الأقل إلىٰ الأكبر.

ـ وفي تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾[4] قال السيّد الحائري عن الفرق بين الصدقة والهدية: «والفرق بين الصدقة والهديّة أنّ الصدقة للمحتاج بطريق الرحم، والهديّة

---

(١) سورة يوسف: ٢٤.

(٢) مقتنيات الدُرر ٣٠/٦.

(٣) يُنظر: معجم الفروق اللغوية الحاوي علىٰ كتاب أبي هلال العسكري وكتاب السيّد نور الدين الجزائري: ٣٩٧.

(٤) سورة المنافقون: ١١.

للتحبّب والمودّة ولذا كان ﷺ يقبل الهدية لا الصدقة فرضاً كانت أو نفلاً»[١].

وفي كتاب فروق اللغات: «الهدية تُشعر بإعظام المُهدىٰ إليه وتوقيره... وهي مبنية علىٰ الحشمة والإعظام»[٢] «والصدقة ما يُرجىٰ به الثواب وخاصّة من الله سبحانه»[٣]، والصدقة هنا أي ما يُرجىٰ به الثواب أقرب لروح الآية في قوله تعالىٰ: ﴿**لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ**﴾ أي أبذل كي أنال الثواب.

ـ وعن الفرق بين المُرائي والمنافق فهو يذكر ذلك في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[٤] إذ قال السيّد الحائري: «إنّ المنافق يُبطن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائي يظهر زيادة الخشوع وآثار الصلاح ليعتقد مَن يراه أنّه من أهل الصلاح، وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بإظهار الدين»[٥].

وفي كتب الفروق اللغوية: «أنّ النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، وسُمّي بذلك تشبيهاً بما يفعله اليربوع وهو أن يجعل بحجره باباً ظاهراً وباباً باطناً يخرج منه إذا طلبه الطالب، ولا يقع هذا الاسم علىٰ مَنْ يظهر شيئاً

---

(١) مقتنيات الدُرر ١٩٢/١١.

(٢) فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات: ٢٢٢.

(٣) فروق اللغات: ١٥٩.

(٤) سورة الماعون: ٧.

(٥) مقتنيات الدُرر ٢٩٠/٢.

ويخفي غيره إلّا الكفر والإيمان، والرياء إظهار جميل الفعل رغبةً في حمد الناس لا في ثواب الله تعالىٰ، فليس الرياء من النفاق في شيء»[١]، النفاق هو الظاهر مخالف للباطن مُطلقاً، ولكن الرياء هو الخشوع وإظهار التقوىٰ الزائدة طلباً للحصول علىٰ شيء.

ثالثاً: من الموضوعات الأخرى التي نتناولها هنا ما يتعلّق بالشطط الذي وقع به المفسّر وانحرف به عن المقصد القريب:

ـ فمن ذلك تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٢]، إذ قال السيّد الحائري المقصود بذلك «الحُمس، وهم طائفة من المشركين يطوفون حول البيت وهم عُراة يعبدون الأصنام ويقولون: نعبد إلهنا ونطوف عُراة كما ولدتنا أمهاتنا ولا نطوف بثياب قارفنا فيها الذنوب»[٣].

لعلّ المعلومة التي ذكرها السيّد الحائري غير دقيقة تاريخيّاً، فقد كتب الدكتور محمّد ظاهر وتر بحثاً[٤] عن الحُمس هذه الطبقة الدينية التي عاشت في قريش خاصّة، وهؤلاء هم «المتشدّدون في الدين، إذ كانوا يقفون بنمرة

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ٥٤٧.

(٢) سورة الأعراف: ٢٨.

(٣) مقتنيات الدُرر ٣٩٦/٤.

(٤) (الحُمس من قبائل العرب) مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتاب العربي بدمشق، العدد ٨١ ـ ٨٢: ١٥٦ ـ ١٥٧.

وباقي القبائل تقف بعرفة، ويلتقون بمزدلفة للإفاضة، ويطوفون حول البيت بملابسهم، ويطوف غيرهم عُرياناً لاعتقادهم أنّ هذه الثياب قد اقتُرِفت فيها الذنوب وعصوا الله فيها ويُسمّون تلك الثياب التي نزعوها باللقيّ، وينطبق نزع الثياب على الرجل والمرأة على السواء... وقد جاء الإسلام فمنع طواف العُريّ وألزم كلّ مَن يطوف أن يلبس لباس الإحرام... ومن مظاهر التشدّد في الدين أنّ الحُمس يحرّمون على أنفسهم أكل الطيّبات من الرزق، فلا يذوقون السمن والزبد واللحم وغير ذلك، ولا يأكلون من نبات الحرم ـ إذا أرادوا الحج ـ ما داموا حُرماً، ولا يلبسون ما صُنع من الوبر والشعر، فلا يغزلون ولا ينسجون وإنّما كانوا يكتفون أن يجلسوا بظلّ الأدم، ولا يظلمون في معاملتهم مع غيرهم، ولا ينقضون الميثاق، ولا يخلفون الذمّة ما داموا في الأشهر الحُرم التي كانوا يعظّمونها ويتقيّدون بحرمتها، وكانوا يقيمون في الحرم»[1] وكانوا كذلك يتمتّعون بالشجاعة، وأغلبهم من قريش ومن الذين يسكنون حول الحرم. ومن الذين كانوا يحجّون إلى البيت، فهم متشدّدون في دينهم، وتظهر فيهم الشجاعة والبطولة[2]. وبهذا يَتبيّن لنا أنّ الذين يطوفون حول البيت عُراة هم ليسوا الحُمس بل غيرهم، فالحُمس يُقدّسهم العرب لتديّنهم وشجاعتهم، وغير الحُمس غير مُقدّس، لذلك فهم ـ أي غير الحُمس ـ مرتكبو الآثام، فعندما يأتون للطواف حول الكعبة عليهم خلع

---

(١) المصدر نفسه: ١٥٧.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ١٥٩.

ملابسهم لأنّها غير طاهرة فقد اقترفوا بها الذنوب، فالطواف يكون دون ملابس، والذين يطوفون بملابسهم فقط هم الخُمس، ولذلك جاء الإسلام بانقلابٍ اجتماعي وأخلاقي وديني كبير عندما فرض لباس الإحرام فقط علىٰ الجميع دون استثناء ودون تمييز نساءً ورجالاً، فانتهت قُدسية الخُمس وهم كبار قريش وساداتها وقادتها وشجعانها ومَنْ جاورهم، وارتفع تقدير غيرهم من الذين كانوا يطوفون عُراة. ولباس الإحرام فُرض في الحج كي لا يُميّز مَنْ هو من الخُمس عن غيره، لأنّ الخُمس كانوا يلبسون أفضل الملابس المُزينة وغيرهم يطوف عارياً، فغرض لباس الإحرام في الحجّ يعني لا تميّز بين الطبقات، إذ لا طبقة خاصّة لها لباسها المقدّس وطبقة أخرىٰ من العُراة فعلىٰ الجميع لبس القطعتين المأزر والغطاء، وهما كالكفن كذلك المكوّن من قطعتين، فضلاً عن ذلك فقد كان الخُمس يدخلون البيوت من غير أبوابها بل يتسوّرون، فمنع الإسلام ذلك، وهذا يؤكّد لنا أنّه لا لباس مقدّس ومحدّد في الإسلام يميّز بين الناس.

ـ **والمثال الثاني**: هو تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾[1]، قال السيّد علي الحائري «وقالوا: ـ أي الرؤساء للأتباع والسفلة ـ لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تَذرُنَّ ودّاً ولا سُواعاً أي: لا تتركوا عبادتها... وخصّ عبادة هؤلاء بالذكر فهو من

(١) سورة نوح: ٢٣.

باب عطف الخاصّ على العامّ لأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظم ما عندهم . . .»[١] .

في حين أنّ النبي نوح عليه السلام كان نبيّاً لمنطقة محدّدة كانت تعبد هذه الأصنام الخمسة ، ولذلك فإنّ حصول الطوفان كان لإغراق مَن عبد هذه الأصنام الخمسة ضمن منطقة العراق وهي خمسة مناطق عراقية ، فما ذنب مَن لم تصل له رسالة نوح كي يتمّ إغراقه ، وهذا مخالف للعدل الإلهي ، فقد تمّ إغراق مَن أُرسل نوح إليه ، والقرآن الكريم يحدّد ذلك بقوله تعالىٰ :

١ ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] .

٢ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾[٣] .

٣ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[٤] .

٤ ـ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾[٥] .

فالإرسال هنا كان خاصّاً لهؤلاء القوم الذين عبدوا تلك الأصنام ، والحقيقة التاريخية تشير إلىٰ أنّ الطوفان قد أغرق خمس مدن في جنوب

---

(١) مقتنيات الدُرر ٣١٧/١١ ـ ٣١٨ .

(٢) سورة نوح : ١ .

(٣) سورة الفرقان : ٣٧ .

(٤) سورة الأعراف : ٥٩ .

(٥) سورة العنكبوت : ١٤ .

العراق، والأصنام الخمسة المذكورة تشير إلىٰ عدد المدن المُغرقة التي عبدت تلك الأصنام.

ليس هذا فحسب فقد تشير الآية إلىٰ الأشخاص الخمسة الذين تزعّموا قيادة الكفّار والمشركين في بداية البعثة النبوية وهم: (أبو جهل بن هشام، أمية بن خلف، عتبة بن ربيعة، أبو سفيان بن حرب وسُهيل بن عمرو).

ـ **والمثال الثالث**: هو تأويله لـ(ذي القرنين) عندما فسّر قوله تعالىٰ: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَباً**﴾[1] فقد اختلف المفسّرون والمؤرّخون في هذه الشخصية اختلافاً كبيراً، فقال السيّد علي الحائري «وفي ذي القرنين أقوال:

الأوّل: هو الاسكندر بن فيلقوس اليوناني، والدليل عليه أنّ القرآن دلّ علىٰ أنّ الرجل المسمّىٰ بذي القرنين بلغ ملكه إلىٰ أقصىٰ المغرب بدليل قوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾[2]، وأيضاً بلغ ملكه إلىٰ أقصىٰ المشرق بدليل قوله: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**﴾ وبلغ ملكه أقصىٰ الشمال بدليل أنّ يأجوج ومأجوج قومٌ من الترك يسكنون في أقصىٰ الشمال، وبدليل أنّ السدّ المذكور في القرآن يُقال في

---

(١) سورة الكهف: ٨٤.

(٢) سورة الكهف: ٨٦.

كتب التاريخ : إنّه مبني في أقصىٰ الشمال ، فهذا الإنسان المُسمّىٰ بذي القرنين في القرآن قد دلّ القرآن علىٰ أنّ ملكه بلغ أقصىٰ المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور في الأرض . والملك الذي اشتهر بهذا العنوان من بسط الملك والقدرة ليس مذكور في التاريخ والدنيا إلّا الإسكندر . . . .

الثاني : قيل هو مزربان من مرزويه بن يافث بن نوح .

الثالث : وقيل من أحفاد كهلان سبأ بن يعرب بن قحطان .

الرابع : وقيل هو تُبّع الأكبر أوّل التبابعة .

الخامس : وقيل إنّه أفريدون بن النعمان الذي قَتَلَ الضحّاك .

السادس : وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المُسمّى بـ: **الآثار الباقية من القرون الخالية** أنّ ذا القرنين هو أبو كرب الحميري ، وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وهو الذي افتخر به التُبّع اليماني حيث قال :

قد كان ذا القرنين جدّني تُبّعاً ... ملكاً علا في الأرض غَيرَ مُفَنَّدِ

بلغ المشارقَ والمغارِبَ يبتغي ... أسبابَ أمرٍ من حكيمٍ ومُرشِدِ

ويمكن أن يكون هذا القول قريباً من الصحّة لأنّ الأذواء كانوا من اليمن مثل ذي المنار وذي النواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن ، ولكن القول الصحيح الأوّل الذي بيان سعة ملكه في القرآن حسبما يُستفاد من التأريخ إنّما هو الإسكندر الرومي . . .»[1] .

فالسيّد علي الحائري يميل إلىٰ أنّه الإسكندر الرومي ، ويرىٰ نشوان

---

(١) مقتنيات الدرر ٤٠٤/٦ ـ ٤٠٦ .

الحِميري أحد علماء القرن السادس الهجري (ت ٥٧٣ هـ) أنّه واحدٌ من التبابعة إذ يقول «وتُبَّع واحد التبابعة من ملوك حِمير، وسمّي تُبّعاً لكثرة أتباعه، وقيل: سُمّوا تبابعة لأنّ الآخر منهم يتبع الأوّل في المُلك، وهم سبعون تُبّعاً ملكوا جميع الأرض ومَن فيها من العرب والعجم، قال لبيد بن ربيعة الكلابي[1]:

فإن تسأليـنا فِيم نحن فإنّنا ... عصافيرُ من هذا الأَنامِ المُسَحَّرِ
عبيدٌ لحيٍّ حِميرٍ إنْ تملّكوا ... ويظلمنا عمّالُ كِسرىٰ وقَيصَرِ
ونحن وهمُ ملكٌ لحِمير عنوةٌ ... وما إنْ لنا من سادةٍ غيرَ حميرِ
تبابعةٌ سبعون من قبلِ تُبَّعٍ ... تولّوا جميعاً أزهراً بعد أزهرِ

وقال النعمان بن بشير:

لنا من بني قحطان سبعون تُبّعاً ... أطاعت لها بالخرج منها الأعاجم

وقال عبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي:

نَعدُّ تبابعاً سبعين منّا ... إذا ما عَدّ مكرمةً قبيلُ

ولكن تبّع الأوسط منهم مؤمناً، وهو أسعد تبّع الكامل بن ملكي كرب بن تُبّع الأكبر بن تُبّع الأقرن وهو ذو القرنين الذي قال الله تعالىٰ: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾[2]، وكان من أعظم التبابعة ومن أفصح شعراء العرب ولذلك قال بعض العلماء فيه، ذهب

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ٥٦.

(٢) سورة الدخان: ٣.

ملك تبّع بشعره ولولا ذلك ما قُدّم عليه شاعر من العرب ، ويقال : إنّه كان نبيّاً مرسلاً إلىٰ نفسه لما تمكّن في الأرض ، والدليل علىٰ ذلك أنّ الله تعالىٰ ذكره عند ذكر الأنبياء ، فقال : ﴿**وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾[١] ولم يُعلم أنّه أُرسِلَ إلىٰ قوم تُبّع رسول غير تُبّع وهو الذي نهىٰ النبي ﷺ من سبّه بقوله : (لا تسبُّوا تُبّعاً فإنّه كان قد أسلم)[٢] ، لأنّه آمن به قبل ظهوره بسبعمئة عام ، وليس ذلك إلّا بوحي من الله عزَّ وجلّ . . .

ومنهم : تُبّع الأقرن وهو ذو القرنين الذي ذكره الله تعالىٰ في كتابه في سورة الكهف بقوله : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً**﴾ وسُمّي ذو القرنين لأنه ولد وقرناه أشيبان وسائر شعر رأسه أسود وكان مؤمناً صالحاً»[٣] .

وفي مكان آخر من كتابه **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم** قال نشوان بن سعيد الحميري : «الصّعب : اسم ذي القرنين السيّار؛ قال لبيد :

لو كان حيٌّ بالحياة مُخَلَّدا ... في الدهر خَلَّده أبو يكسوم

والصَعبُ ذو القرنين أصبحَ ثاوياً

وعن علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم : أنّ ذا القرنين السَيَّار ، هو الصعب بن عبدالله بن مالك بن زيد بن سدد بن حِمير الأصغر ،

---

(١) سورة ق : ١٤ .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) في مسنده ٣٤٠/٥ .

(٣) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ٧١٥/٢ .

وقد أَوضحتُ في كتاب القاف أنّ ذا القرنين الذي بنىٰ سدّ يأجوج ومأجوج هو تُبّع الأقرن لأنّه ولِدَ وقرناه أشيبان فسمِّي الأقرن وذا القرنين، وكان عبداً صالحاً عالماً قد تمكّن في الأرض»[١].

ولكن العلّامة أبو الكلام آزاد[٢] طرح رأياً مخالفاً لما مرّ من التأويلات عن شخصية ذي القرنين وتحديدها، وقد عرض لهذا الرأي السيّد سلمان عابد الندوي عرضاً مفصّلاً في كتابه **تأمّلات في شخصية ذي القرنين** دراسة تحليلية بقلم الأستاذ إمتياز علي عرشي في ضوء ما كتبه العلّامة أبو الكلام آزاد[٣]، والرأي عنده أنّه الملك قورش الفارسي وليس الاسكندر الرومي أو أحد التابعة أو غيره، وأنّ الرأي القائل بأنّه الاسكندر المقدومي هو باطل لثبوت وثنيّته وعدم إيمانه بالله والبعث بعد الموت، وأنّ هذا الأمر ـ أي تحديد شخصية ذي القرنين ـ أخذ مدىً واسعاً في الدراسات فقد: «صنّف سير سيد أحمد خان رسالة تُسمّىٰ **إزالة الغين عن قصة ذي القرنين** طبع في آجرة سنة (١٨٩٠م) وأثبت فيها أنّ المراد بذي القرنين هو ملك الصين (جي، وانك، تي) الذي بنىٰ جدار الصين وتُوفّي سنة (٢١ ق.م)، ثمّ ألّف مولانا

---

(١) المصدر نفسه ٣٧٣٩/٦.

(٢) أبو الكلام آزاد صاحب تفسير (ترجمان القرآن) باللغة الأردية المتوفّىٰ سنة (١٩٥٨م)، وهو من كبار العلماء وأشهر الخطباء في شبه القارّة الهندية ووزير المعارف الأسبق في جمهورية الهند، وكان من زعماء حركة استقلال الهند، ورأيه عن ذي القرنين طرحه في تفسيره المذكور (يُنظر: تأمّلات في شخصية ذي القرنين، ص٨).

(٣) طبع مؤسّسة الرسالة، بيروت ـ سوريا، ط٢، سنة (١٩٨٩م).

عبدالحق الدهلوي رسالة تسمّىٰ بـ: **إزالة الرين عن قصة ذي القرنين** ردّاً علىٰ رأي سير سيّد أحمد خان، ومع نقده علىٰ رأي سيّد أحمد لم يقبل آراء المفسّرين السابقة، وأثبت أنّ ذا القرنين هو (تُبّع الحميري) والسدّ الذي بناه هو ما يقع في جبل يورال»[1].

عندما نطالع سورة الكهف نجدها قد ذكرت أربع قصص هي:

١ ـ قصّة أصحاب الكهف.

٢ ـ قصّة موسىٰ و(فتاه) أو العبد الصالح.

٣ ـ قصّة ذي القرنين.

٤ ـ قصّة صاحبي الجنّة.

نجد أنّ مواقع أحداث هذه القصص هي في شمال الجزيرة العربية، فقصّة أصحاب الكهف وقعت في دولة الروم آنذاك وحالياً هي الأردن، وقصّة موسىٰ في مصر أو شمال الجزيرة العربية، فلابدّ وأن تكون الثالثة كذلك من تلك المنطقة لأن عرب الجنوب لم يَتسنّى لهم السيطرة علىٰ العالم بهذه الطريقة، وأنّ جيوشهم لم تصل إلىٰ أماكن بعيدة، ويتبيّن أنّ تحديد شخصية ذي القرنين بالملك قورش الفارسي قد أخذت بُعداً كبيراً عند المفسّرين الهنود لأنّ «أوّل من بحث في الموضوع هو مولانا حكيم محمّد حسن النقوي المتوفّىٰ سنة (١٢٢٣ هـ) في تفسيره بالفارسية الموسوم بـ: **معالمات الأسرار**، ورأىٰ أنّ المُراد بذي القرنين هو (قورش) مؤسّس الامبراطورية الفارسية،

---

(١) المصدر نفسه: ٢٠.

وعلىٰ حدّ قوله فإنّ هذا الرأي يتأيّد بما جاء في صحيفة دانيال وصحيفة إشعياء... ثمّ ألّف الحكيم نور الدين القادياني كتابه المسمّىٰ بـ: **تصديق براهين أحمدية** وجاء بهذا الرأي بمزيدٍ من التفصيل، فقد استعرض قصّة رؤيا دانيال وتأويلها علىٰ لسان جبريل وحاول تطبيقها علىٰ (قورش) وأثبتَ له صفة ذي القرنين»[1].

وقبل أن نشرع في عرض رأي أبي الكلام آزاد يتبيّن لنا أنّ المفسّرين الهنود يميلون إلىٰ أنّه (قورش) الفارسي، وأنّ نشوان بن سعيد الحِميري يؤكّد علىٰ أنّه من اليمن كما مرّ بنا سواء أكان هو الصّعب أو من التبابعة.

كانت رؤيا دانيال هي من حَفّز الباحثين علىٰ أنّ ذا القرنين هو نفسه (قورش) وكذلك «لا ينبغي أن ننسىٰ أنّ (قورش) كان من متّبعي مذهب (مزديستا) أي الدين الزرادشتي، وهذا أمرٌ له أهمّية خاصّة في العلاقة التي كانت بين الفارسيّين والإسرائيليّين، فمن المعلوم أن الوثنية كانت عامّة شاملة في العالم كلّه لم يشذّ عنها إلّا فئتان إثنتان: اليهود والزرادشتيّون، وأنّ (قورش) هو منقذ اليهود من السبي البابلي، فقد بعثه الله لإنقاذ بني إسرائيل ممّا كانوا من البلاء العظيم... فقورش لقّب في كلام أشعياء النبي براعي الله ومسيحه... وما دام الأمر كما ذُكر فطبيعة الحال تقتضي المقصود في سؤال اليهود عن ذي القرنين»[2].

---

(١) المصدر نفسه: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣٩ ـ ٤٠.

وفي هذه الحالة فإنّ (قورش) الذي كان من أتباع الديانة الزرادشتية لم يكن نبيّاً بل كان ملكاً صالحاً «ومعلّماً أخلاقيّاً يؤسّس ـ خلافاً لما كانت عليه الملوك والحكومات من الأخلاق والسيرة ـ إمبراطورية جديدة على أخلاق سياسية جديدة»[١]، وأصحاب الكهف كانوا من الصالحين وكذلك الفتى الذي رافق موسى كان من الصالحين، فسورة الكهف هنا تقصّ علينا قصصاً ثلاثة لمجموعةٍ من الناس الصالحين الذين دعانا القرآن إلى الاعتبار بقصصهم.

ويحدّد أبو الكلام آزاد الأماكن التي دخلها ذو القرنين (قورش) منها فتح بابل وتحرير اليهود بعد سبعين سنة من السبي في زمن بخت نصر سنة (٥٤٥ ق.م) بطلبٍ من أمراء بابل وشخصيّاتها بأن يقدم إلى مدينتهم ويُنجّيهم من عسف الملك بيل شازار الذي خلف بخت نصر[٢]. ومن المناطق التي فتحها (قورش) مناطق شمال إيران التي تتاخم الجبال الشمالية الفاصلة بين بحر الخزر والبحر الأسود أي بلاد القوقاز، ومن ثمّ أمر ببناء سدّ حديدي هناك[٣].

والآية القرآنية تشير إلى تمكينه بالأرض في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَباً**﴾[٤]، وهذا يذكّرنا بقوله تعالى:

---

(١) المصدر نفسه: ٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٦٠.

(٤) سورة الكهف: ٨٤.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾[١] .

وعندما يذكر أنّ (قورش) من أتباع الديانة الزرادشتية فإنّ تلك الديانة كانت مقبولة عند كثيرٍ من علماء المسلمين ، بل أنّ شيخ الإشراق شهاب الدين السهرودي في كتابه حكمة الإشراق كان يعدّ زرادشت نبيّاً ، بل تمّت معاملة الزرادشتيّين معاملة أهل الكتاب[٢] .

ولكن هذا لا يعني أنّ الموضوع قد تمّ حسمه تماماً ، فهي آراء فيها الراجح وفيها غير الراجح .

---

(١) سورة يوسف : ٥٦ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٩٤ .

المصادر

* **القرآن الكريم**

١ ـ **تأمّلات فى شخصية ذي القرنين** : لسلمان عابد الندوي ، طبع مؤسّسة الرسالة ، بيروت ـ سوريا ، ط٢ ، سنة ١٩٨٩ .

٢ ـ **تفسير مقتنيات الدُرر وملتقطات الثمر** : للسيّد علي الحائري الطهراني ، تحقيق السيّد محمّد وحيد الطبسي الحائري ، مراجعة وتدقيق محمّد تقي الهاشمي ، مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي قم سنة ٢٠١٢ .

٣ ـ **الخُمس من قبائل العرب** : مجلّة التراث العربي الصادرة عن اتّحاد الكتاب العربي بدمشق ، العدد ٨١ ـ ٨٢ .

٤ ـ **ديوان لبيد بن ربيعة العامري** : دار صادر ـ بيروت .

٥ ـ **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم** : لنشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣ هـ) ، تحقيق : الدكتور حسين العمري ومطهَّر بن علي الأرياني ، والدكتور محمّد ابن عبد الله ، نشر دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر في دمشق ، ط١ ، سنة ١٩٩٩ .

٦ ـ **عشائر كربلاء وأُسرها** : سلمان هادي آل طعمة ، دار المَحجّة البيضاء ، بيروت سنة ١٩٩٧ .

٧ ـ **فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات** : للسيّد نور الدين بن نعمة الله الجزائري ، حقّقه وشرحه الدكتور محمّد رضوان الداية ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، طهران ، سنة١٤١٥هـ.

٨ ـ **مسند أحمد بن حنبل** : لأحمد بن حنبل ، دار صادر بيروت د . ت .

٩ ـ **معجم الفروق اللغوية الحاوي علىٰ كتاب أبي هلال العسكري وكتاب السيّد نور الدين الجزائري** : تحقيق : مؤسّسة النشر الإسلامي ، قم ، سنة ١٤٣٦هـ.

١٠ ـ **معجم المؤلّفين** : عمر رضا كحالة ، مؤسّسة الرسالة ، ط١ ، سنة١٩٩٣ .

١١ ـ **نقباء البشر في القرن الرابع عشر ، ضمن كتاب طبقات أعلام الشيعة (القسم الرابع من الجزء الأوّل)** : للشيخ آقا بزرك الطهراني مطبعة الآداب ، النجف الأشرف سنة ١٩٦٨ .